المبحث الثاني

دور تأليف الرسائل في إعجاز القرآن

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: رسالة الرُّماني (ت: ٣٨٤هـ) ومنهجه في الإعجاز القرآني

لعل أول رسالة خاصة بإعجاز القرآن وصلتنا من أحد متكلمي المعتزلة وأدبائهم هي رسالة «النُّكت في إعجاز القرآن» وهي أولى المصنفات التي وصلتنا كاملة في هذا الباب، وهي أيضاً: «أول دراسة فنية ذات وحدة متماسكة فتحت الباب بعد ذلك لدراسات أوسع وأشمل وأعمق»[1].

والرُّمّاني: هو أبو الحسن علي بن عيسى الرُّمّاني، نسبه إلى الرمان وبيعه أو إلى قصر الرمان، وهو قصر بواسط في العراق. ولد سنة ست وتسعين ومائتين (٢٩٦هـ) من الهجرة بمدينة سامراء أو ببغداد. أخذ اللغة والنحو على جماعة من شيوخ العلم مثل أبي بكر السراج، والزجاج، وابن الإخشيد المعتزلي. كان محباً للعلم واسع الإطلاع متقناً للأدب وعلوم اللغة والنحو. وبرع في علوم القرآن والتفسير وألّف فيها. وكان إمام من أئمة المعتزلة، لم تقتصر إمامته على نوع خاص من أنواع المعرفة، بل كان أحوذياً جمع إلى العلوم العقلية كثيراً من العلوم النقلية. توفي سنة (٣٨٤هـ).

أما كتابه (النكت في إعجاز القرآن) فقد وضعه نتيجة لسؤال وُجّه للرماني، والذي أوضحه في مقدمة كتابه هذا حيث يقول: «سألت وفّقك الله عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وأنا أجتهد في

---

(١) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ: ١١٢، وينظر: النكت في إعجاز القرآن: المقدمة.

بلوغ محبتك والله الموفق للصواب بمنّه ورحمته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم»[1].

وقد قسّم المصنف رسالته هذه إلى مقدمة وأحد عشر باباً: فالمقدمة اختصرها غاية الاختصار وسرد فيها سبعة أوجه للإعجاز منها البلاغة التي خصها بعشرة أبواب من الرسالة وقد أطنب في الحديث عنها حيث استوعبت أكثر صفحات الرسالة، وأما أوجه الإعجاز الستة الباقية كان حديثه عنها مقتضباً موجزاً. فرسالته تقع في نحو أربعين صفحة، أخذت البلاغة منها نحو خمس وثلاثين، بينما لم تأخذ الوجوه الأخرى إلا أربع صفحات فقط[2]. وقد كان للمباحث البلاغية أيضاً: «أكبر الأثر في تاريخ البحوث البلاغية على مرّ الأزمان، كما كانت مصدراً يستقي منه كل العلماء الذين أتوا بعده، وعُنُوا بالبلاغة العربية عامّة وبلاغات القرآن خاصة»[3].

وقد قسّم البلاغة إلى ثلاث طبقات:

١- **أعلى طبقة**: وهي بلاغة القرآن المعجزة وهي خاصة به، لا يصلها كلام البشر مهما ارتقوا في أساليب البلاغة والبيان.

٢- **أوسط طبقة**: وهي ممكنة للناس، وهي كلام البلغاء والفصحاء.

٣- **أدنى طبقة**: وهي كلام عامة الناس.

---

(١) النكت في إعجاز القرآن: المقدمة، وينظر: معترك الأقران: ١/١٧٦، ومباحث في إعجاز القرآن: ص٤٩-٥٠، وإعجاز القرآن: ٨٥.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٥١، وينظر: معترك الأقران: ١/١٧٦، وإعجاز القرآن: ٤٣.

(٣) المباحث البلاغية: ١١٣-١١٤، وفكرة تاريخ إعجاز القرآن: ٥٣.

فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس[1]. فالبلاغة تعني: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ... فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحم خاصة كما أنَّ ذلك معجز للكافة[2].

❑ وجوه الإعجاز عند الرُّمّاني:

ذكر الرماني في رسالته الموجزة سبعة أوجه للإعجاز هي[3]:

١- **الوجه الأول**: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدّة الحاجة[4] وتعني: أن العرب تركوا معارضة القرآن مع إنَّ دواعيهم كانت متوافرة، وكانت حاجتهم لهذه المعارضة شديدة قوية. وفي تقديري -لا يصح- أن يُجعل العجز عن المعارضة وجهاً من وجوه الإعجاز؛ لِما فيه من الدَّوْر[5]؛ ولأنَّ العجز دليل الإعجاز، وليس هو الإعجاز.

٢- **الوجه الثاني**: التحدي للكافة، ليس وجهاً من أوجه الإعجاز بقدر ما هو داعية إلى الإعجاز؛ إذ إنَّ التحدي هو السبيل الذي أغرى الله به البشر كافة؛ لأن يعارضوا القرآن فانقطعوا و لم يستطيعوا.

---

(١) النكت: ٧٥، وينظر: دراسات في الإعجاز: ٤٣، وإعجاز القرآن: ٨٧.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٧٦، والإعجاز في نص الخطاب: ٤٠٩.

(٣) الرسالة: ٧٥، وينظر: دراسات في الإعجاز: ص٤١.

(٤) المصدر السابق: ١٠٩.

(٥) الدَّور: هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه... كما يتوقف (أ) على (ب)، و(ب) على (ج) و(ج) على (أ)، التعريفات: ١٤٠.

٣- **الوجه الثالث**: الصَّرفة: تعني عند الرمانيّ: صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في إنَّ القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن الجادة كخروج سائر المعجزات التي دلّت على النبوة، ولهذا عرف الرمّاني (صرف): بأنَّها الصرفة للهمم عن المعارضة، وأظهر أنَّ هذا القول اعتمد عليه بعض أهل العلم. ولعله قصد (المعتزلة) الذين تزعموا ذلك القول، ولذلك نجد (الرماني) قد قال بالصرفة وعدّها وجهاً من الوجوه التي لا تقدح في بلاغة القرآن، وحسن تأليفه، فقد ذكر أنَّ القرآن في أعلى مراتب البيان، ولا يدانيه شيء من كلام فصحاء العرب، وبلاغييهم، فهو مقتنع بإعجاز البلاغة القرآنية، التي لولاها لجاءوا بمثله[١].

٤- **الوجه الرابع**: البلاغة، فقد قسمها الرماني إلى عشرة أقسام هي:

١. **الإيجاز**: (وهو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقلّ منها، وافية بالغرض المقصود مع الإبانة والإفصاح، كقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٢] فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها»[٣] وللإيجاز أقسام.

٢. **التشبيه**: هو «عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قُصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم»[٤].

---

(١) ينظر: حوار مع الرماني: ١١١-١١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) النكت: ٧٦-٨٠، وينظر: جواهر البلاغة: ٢٢٢ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق: ٨٠-٨٥، وينظر: المصدر السابق: ٢٤٧.

٣. **الاستعارة**: وهي «استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، والاستعارة ليس إلا تشبيهاً مختصراً ولكنها أبلغ منه»[١].

٤. **التلاؤم**: عدم تنافر الحروف. والتنافر وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج[٢].

٥. **الفواصل**: الفاصلة: «كلمة آخر الآية»[٣]، «وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر -جَلَّ كتاب الله تعالى- واحدها فاصلة»[٤].

٦. **التجانس ويعني بها المشاكلة**: هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته نحو قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ أي: أهملهم، ذكر الإهمال هنا بلفظ النسيان لوقوعه في صحبته»[٥]. وازدواج: هو «تجانس اللفظين المجاورين نحو: من جدّ وجد»[٦].

٧. **التصريف**: يعني به تصريف المعنى من المعاني المختلفة كتصريف الملك في معاني الصفات فصُرف في معنى مالك، وملك، وذي الملكوت، والمليك، وفي معنى التمليك[٧].

---

(١) المصدر السابق: ٨٥-٩٤، وينظر: المصدر السابق: ٣٠٣-٣٠٤.

(٢) المصدر السابق: ٩٤-٩٧، وينظر: المصدر السابق: ٨.

(٣) البرهان: ٥٣/١.

(٤) لسان العرب: مادة (ف ص ل)، وينظر: النكت: ٩٧-٩٩.

(٥) جواهر البلاغة: ٣٧٥.

(٦) المصدر السابق: ٤٠٤.

(٧) ينظر: النكت: ١٠١-١٠٢.

٨. **التضمين**: «وتضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو صفة وكل آية فلم تخل من تضمين لم يذكر باسم أو صفة، فمن ذلك قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قد تضمن التعليم الاستفتاح الأمور على التبرك به، والتعظيم لله بذكره، وأنه أدب من آداب الدين، وشعار للمسلمين...»[١].

٩. **البيان**: هي «أن يدّعي المتكلم لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستبعداً أو مستحيلاً» ولها أنواع[٢].

١٠. **البيان**: يعني به علم البيان المعروف الذي هو (أصول وقواعد يعرف بها إيراد الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى»[٣].

٥- الوجه الخامس: الإخبار عن الغيوب: سبق أن ذكر أنَّ الإعجاز فيها إعجاز جزئي لا كلّي، بمعنى أنَّه ليس في كل آيات القرآن العظيم[٤].

٦- الوجه السادس: نقص العادة: يعني به الرمّاني أنَّ القرآن قد أتى نظمه على طريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق كل منزلة[٥].

٧- الوجه السابع: قياس القرآن بكل معجزة، ويوضح مراده بقوله: «وأما قياسه بكل معجزة فإنَّه يظهر إعجازه من هذه الجهة؛ إذ كان سبيل فلق

---

(١) النكت: ١٠٢-١٠٤ وهو غير التضمين المشهور في علم البلاغة وهو أن يضمّن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر الغير. ينظر: جواهر البلاغة: ٤١٦.

(٢) المصدر السابق: ٤١٦، وينظر: المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث: ١٩٧.

(٣) جواهر البلاغة: ٢٤٤ وما بعدها من أبحاث التشبيه والمجاز والكناية.

(٤) ينظر: معترك الأقران: ١٨٢/١ وراجع ص١٣٤ من نفس الكتاب.

(٥) النكت في إعجاز القرآن: ١١٠.

البحر وقلب العصا حيّة، وما جرى هذا المجرى في ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز، إذا خرج عن العادة وقعد الخلق منه عن المعارضة»[1] وقد فُسر كلامه هذا بأنَّه «مادام الناس قد عجزوا عن أن يأتوا بما أتى موسى من قلب العصا حيّة وفلق البحر فإنَّهم قد عجزوا أيضاً عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ بعد أن تُحدوا إليه، فكان السبيل واحداً بالنسبة لما جاء به موسى وما جاء به محمد ﷺ وهو العجز؛ لأنَّ كليهما قد أتى بما هو خارج عن العادة»[2].

كانت تلك أوجه الإعجاز التي أتى بها الرمّاني في رسالته، ويمكن اختصارها في ثلاثة أوجه قيل بأنَّها من أوجه الإعجاز أما ما عداها فلا، وهذه الأوجه هي:

١- الإعجاز البلاغي والنظميّ.

٢- الإعجاز بأخبار الغيب.

٣- الإعجاز بـــ(الصَّرفة).

ويمكن أن نلاحظ في رأي الرمان بالإعجاز اتجاهاً جديداً وهو: جمعه لكثير من النظريات التي قيلت قبله. فهو لا يأخذ بناحية وينقد الأخرى أو يرفضها. بل يقبل كل ما قيل في أوجه الإعجاز[3].

---

(١) المصدر السابق: ١١١.

(٢) تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية: ٢٧١-٢٧٢، وينظر: الإعجاز البلاغي: ٨٦.

(٣) ينظر: نظرات في الإعجاز: ٨٤.

المطلب الثاني: رسالة الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) ومنهجه في الإعجاز القرآني

الإمام الخطابي: هو أبو سليمان محمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨هـ. ويُعدّ الخطابي من علماء أهل السنّة والجماعة البارزين، وهو الأديب اللغوي المحدّث، عُرف بمؤلفاته الجليلة مثل (معالم السنن) في شرح سنن أبي داود، و(أعلام السنن) في شرح البخاري، و(غريب الحديث) وكتابه (بيان إعجاز القرآن) ركّز فيه على الإعجاز البياني اللغوي البلاغي في القرآن، وتعرّض فيه لآراء العلماء الذين سبقوه بالحديث عن إعجاز القرآن وبلاغته، وهذا يدل على أنه استفاد من الذين ألّفوا قبله، وطريقته شبيهة بطريقة الرمّاني في عرض الكلام البليغ[١].

ويُعدّ الخطابي أسبق علماء المسلمين إلى البحث عن «الإعجاز» بحثاً علمياً منظماً[٢]. ويرى أنَّ قضية إعجاز القرآن قديمة حديثة، قديمة ببداية التحدث عن كنوز القرآن وتبيان معانيه ومقاصده، وحديثة في أنَّها من القضايا التي تشغل العلماء والأدباء في عصره في القرن الرابع الهجري.

ونجد إنَّ الخطابي بدأ في رسالته بإثبات عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لأنَّ القرآن تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثله، وهم أهل البلاغة والفصاحة، وأصحاب القصائد، ولكنهم تركوا كل ذلك، وعمدوا إلى ما هو أشق وأصعب، وهو المنازلة والمحاربة، فقد تركوا رصف الحروف إلى مقارعة السيوف، وليس ذلك إلا لعجزهم، فمثلهم كمثل من كان شديد الظمأ والماء بجانبه، ولكنه هلك من شدة العطش لحكمنا أنه عاجز عن شربه

---

(١) ينظر: الأعلام: ٣٤٩/٢، والإعجاز في نص الخطاب: ٤٠٩.

(٢) ينظر: نظرات في الإعجاز: ٨٤، وينظر: البيان في إعجاز القرآن: ٦٧.

غير قادر عليه، وهذا بيّن واضح لا يشكل على عاقل[1] وأن الرسول الكريم قد تحدّى العرب قاطبةً، مظهراً لهم النكير مسفهاً آراءهم، ومع هذا، فلم تكن فترة تحدي الرسول للعرب قاطبةً قصيرة، بل طالت إلى مدة تجاوزت العشرين سنة، وبهذا فإنَّ التحدي ظل قائماً فترة طويلة[2] فكانت هذه هي القضية الأولى التي عرض لها الخطابي.

أما القضية الثانية التي عرضها الخطابي، فهي بيان وجه إعجاز القرآن.

❑ وجوه الإعجاز عند الخطابي:

لقد أشار الخطابي إلى الوجوه التي كانت مشتهرة في زمنه، وعلّق على كل بما يناسبه ويلاءمه[3]. ومن هذه الأوجه هي:

١- القول بالصرفة:

لقد عرض الخطابي لهذا القول، وناقش القائلين به، وهو قبل أن يحكم للصرفة أو عليها حاول أن يعرض فهم القائلين بها ولها، حيث شبّه عجز العرب عن القرآن بقوم قال لهم نبيهم: «لو كان الله بعث نبياً في زمان النبوات وجعل معجزته في تحريك يده أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه، ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال: آيتي أن أحرك يدي أو أمد رجلي ولا يمكن أحداً أن يفعل مثل فعلي، والقوم أصحاء الأبدان، لا آفة بشيء من جوارحهم فحرّك يده أو مدّ رجله، فيراموا أن يفعلوا مثله فعله، فلم يقدروا عليه، كان ذلك آية دالة على صدقه، وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي، ولا إلى

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن: ٤٦.

(٢) ينظر: دراسات في الإعجاز: ٨٩.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢٢.

فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارقاً عن مجاري العادات ناقضاً لها»[1] ثم بعد أن يعرض الخطابي مفهوم الصرفة، يبين رأيه فيها بعد أن يقدر أن القول بها وجه قريب، إلا إنه مع هذا يرفض القول بها، لأنَّ دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2] فهذه الآية الكريمة تثبت أن القوم قد أرخى لهم العنان، ووسع عليهم في المعارضة، ومنحوا القدرة على التعاون فيما بينهم، فشتان بينهم وبين من سلبوا القدرة على الحركة في حال صحتهم وسلامتهم[3].

ونجد إنَّ المعنى الذي يفهمه الخطابي من هذه الآية غير المعنى الذي فهمه أنصار «الصرفة» والذي يبدو من هذه الآية أنَّ الله تعالى أشار إلى أمر طريقة التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلاءم هذه الصفة، فدلَّ على إنَّ المراد غيرها. مع إنَّ الصرفة في معناها العام، كما فهمها بعض المعتزلة لا يتنافى مع الواقع؛ إذ إنَّ أمر المحاولة من البشر للإتيان بمثل القرآن أمر فوق قدرتهم، ولذلك فإنَّ الله تعالى، تحدى العرب في أعز ما لديهم. ومع ذلك فإنَّ الله تعالى هو الذي صرف القوم ليتأكدوا من عدم مقدرتهم؛ لأنَّ قدرة الله تعالى، فوق قدرتهم[4].

---

(١) بيان إعجاز القرآن: ٢٣ (ضمن ثلاث رسائل)، وينظر: القول بالصرفة: ١٧٥، وأسلوب القرآن: ٣٢٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٣) إعجاز القرآن: ٤٦-٤٧.

(٤) ينظر: دراسات في الإعجاز: ٩١-٩٢.

٢- الإخبار بالغيب:

قال: إنَّ القرآن معجز بما فيه من أخبار الغيب، فإنه ليس عاماً في القرآن كله، لأنَّ أخبار الغيب إنما توجد في بعض سور القرآن الكريم، والقرآن حيث تحداهم، أن يأتوا بسورة من مثله سواء أكانت مشتملة على أنباء الغيب أم لم تكن، وعليه فإن هذا الوجه لا يصح أن يكون عاماً[١] وقد بدأ لبعض دارسي إعجاز القرآن، أنه معجز لما يتضمن من إخبار عن الكوائن في المستقبل الزمان، وأنباء عن مجرياتها في قابل الأيام، من ذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾[٢] وتحقق ما جاء في الآية. وأيضاً قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾[٣].

وافق الخطابي في هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني، وذلك لأنَّ الأمر جاء من القرآن، ولكنه لم يرتضه وجهاً عاماً لإعجاز القرآن الكريم لأمرين هما:

١- لا يشجب أمر الإخبار على جميع سور القرآن الكريم، إذ بعض السور، لا خبر فيها عن مستقبل.

يوجد في بعض كتب الإخباريين والكهّان، الشيء الكثير من أمر الأخبار السابقة، وهذا يعني توافق القرآن مع كتب هؤلاء غير المسلمين في ناحية، وهذا يقلل من قمة الإعجاز القرآني. وهذا الفهم من الخطابي يدور في

---

(١) ثلاث رسائل: ص٢٣.

(٢) سورة الروم، الآيات: ١-٤.

(٣) سور الفتح، الآية: ١٦.

ساحة الآية القرآني ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1] وهذا يعني عدم اعتبار الإخبار عن الغيب وجهاً كاملاً عن تبيان إعجاز القرآن[2].

٢- أن القرآن معجز ببلاغته:

عرض الخطابي لهذا الوجه من إنَّ البلاغة هي الوجه الكامل للإعجاز، وأصحاب هذا القول لم يحددوا معالم هذه البلاغة ولم يضعوا لها قواعد وضوابط بل اكتفوا بالقول: إننا حين نسمع القرآن نحس في أنفسنا أنَّ له بلاغة لا توجد في غيره، وكثير من الناس يتذوقون الكلام فيميزون بين البليغ والأبلغ. فلم يرتضي الخطابي هذا الرأي بهذا العموم، لأنَّك إذا سألتهم ما تفسير هذا الوجه البلاغي قالوا لك: إنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده. وهذا الجواب يكون في واقعة النفي عن سماعه في القلب المستمع، وهذا في رأي الخطابي غير كاف؛ لأنَّ يقف وجهاً موضوعياً اعتماداً على أن سبب هذا الوجه البلاغي يظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة[3].

ويرى الخطابي أنَّ ما للقرآن من أثر وبهجة ورونق، يجدها السامع في حسه، وتهش لها نفسه، فيكون له من الصنيع فيها ما لا يوجد لغيره من الكلام، كان لابد له من سبب يبحث عنه الباحثون، وامتاز بها القرآن عن غيره، يقول الخطابي بأنَّه استقرى جميع الأوصاف والأسباب الخارجة عن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) ينظر: دراسات في الإعجاز: ٩٢-٩٣.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٤٨، ودراسات في الإعجاز: ٩٣.

القرآن، فلم يجد سبباً صالحاً من أجله تبوأ القرآن هذه المنزلة العالية، لذا كان السبب كامناً في القرآن نفسه مستمداً منه، وهو يرجع إلى أجناس الكلام[1] فجعل أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فهي لا تخرج عن واحد من ثلاثة:

١. **البليغ الرصين الجزل**: وهذا ينفع في أسلوب الترهيب والتهديد والتقريع.

٢. **الفصيح القريب السهل**: وهذا ينفع في أسلوب الترغيب والتأنيس.

٣. **الجائز الطلق الرسل**: وهو وسط بين القسمين السابقين.

فالمخاطبون ليسوا سواء، فمنهم الحضري الذي هذّب لسانه، ومنهم سكان البادية الذين أكسبتهم البداوة قوة ورصانة. وإذا كان المخاطبون كذلك، فإنَّ الموضوعات التي يقصد إليها المتكلم ليست سواء كذلك، فالحديث عن الوصف يختلف عن الهجاء، وأسلوب التقريع والتبكيت يختلف عن أسلوب التحبب والمؤانسة، وعلى هذا فأسلوب التقريع لابد له من كلمات قوية، كأنما هي الرعد القاصف، كلمات تقرع القلوب، وترتجف لها النفوس.

أما أسلوب التأنيس، فلابد له من الكلمات الرفيقة التي تتدفق عذوبة وحيوية وهناك مرتبة وسط بين هاتين[2]. ويقول الخطابي: «إنَّ بلاغة القرآن اشتملت على هذه الأنواع الثلاثة»، وهذا صحيح فأنت حينما تقرأ في كتاب الله وهو يحدثك عن يوم القيامة، وعما يكون للمكذبين، فإنك تجد الكلمات الجزلة القوية، مثل سورة الحاقة، وحينما تقرأ ما أعد للمؤمنين تجد الكلمات السلسة العذبة، مثل سورة الإنسان، وفيما بينهما تجد الوسط. وربما تجد

---

(١) ينظر: ثلاث رسائل: ٢٦، وينظر: إعجاز القرآن: ٨٩-٩٠.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٥٠، ودراسات في الإعجاز: ٩٣.

الآيات الأخرى قد اشتملت على الأجناس الثلاثة معاً، وليس بعض هذه الثلاثة أبلغ من بعض، بل إنَّ كل واحد في مكان وسياقه هو آية الحسن، هذا ما يُفهم من كلام الخطابي[1].

ويبين الخطابي الأصل الذي من أجله تعذّر على العرب أن يأتوا بمثل القرآن وهو:

أولاً: أنَّهم لم يحيطوا بجميع ألفاظ اللغة، مفردات وتراكيب.

ثانياً: فإنَّ أفهامهم لا تدرك جميع المعاني التي تحمل عليها تلك الألفاظ.

ثالثاً: ليس لهم معرفة تامة بجميع أنواع النظم، وحديث الخطابي عن النظم القرآني يختلف بعض الاختلاف عن حديث الجاحظ وابن قتيبة والرماني، بينما اهتم السابقون ببيان وجوه المجاز والاستعارات والتشبيهات، واستخدام الألفاظ وقارنوا ذلك بما ورد عن العرب في أشعارهم وخطبهم، لهذا نجد الخطابي يضيف بعداً جديداً إلى مفهوم النظم[2] حيث يقول: «وإنَّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لها ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنَّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»[3].

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢٤، وينظر: إعجاز القرآن: ٥١.

(٢) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢٤، وينظر: مباحث في إعجاز: ٧٠-٧١.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢٧، وينظر: إعجاز القرآن: ٩٠.

وبهذا يكون الخطابي من أوائل الذين أشاروا وألمحوا إلى قضية النظم بمعناها الدقيق، وهو يرد بذلك على أنصار اللفظ، وأنصار المعنى معاً.

رابعاً: ويبين الخطابي أنَّ عمود البلاغة وأساسها أن يوضع للمعنى اللفظ الخاص به، الذي يدل عليه دلالة تامة، لذا وجدناه يفرّق بين الكلمات التي يظن كثير من الناس أنها سواء كالحمد والشكر والعلم والمعرفة.

خامساً: يرد الخطابي بعض الشبهات ويجيب عن بعض الاعتراضات التي وجّهت إلى ألفاظ القرآن ونظمه، ومن هذه الاعترافات أن ألفاظ القرآن ليست أفصح الألفاظ، فإن هناك ألفاظاً ردها أهل المعرفة باللغة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾[1] فكلمة (أكل) كما يقولون ليست فصيحة والأفصح أن يقال: (افترس)؛ لأنَّ الافتراس خاص بالسباع والأكل عام فيها وفي غيرها.

ويرد الخطابي: فيبين أن (الفرس) أصله (دق العنق)، ومعناه (القتل) فحسب، أما الأكل فهو الإتيان على جميع أجزاء الفريسة وأعضائها، ولو إنَّ إخوة يوسف قالوا لأبيهم: افترسه، لطالبهم ببقية أجزائه[2].

سادساً: يتوسع بذكر المعارضات، ويذكر أن ما روي من معارضات للقرآن الكريم كما كان من مسيلمة الكذاب، لا تصلح، لأنَّ المعارضة شروطها وأسسها كما يعرفها علماء اللغة.

سابعاً: أشار الخطابي إلى وجه جديد لم يسبق لمن قبله أن ذكره ألا وهو: الإعجاز التأثيري، وأطلق عليه بعضهم بالإعجاز الروحي أو الإعجاز

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٧.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن: ٥١.

النفسي[1] حيث يقول: «قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنَّك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في حال أخرى ما يخلص من القرآن إليه، تستشربه النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة، وقد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتترعج له القلوب...»[2].

وهذا الكلام للخطابي بمثابة الشرح والتفصيل لما جعله الوصفين المتميزين للقرآن الكريم وهما (الفخامة والعذوبة). فنتيجة الفخامة أن تشعر التالي للقرآن بالروعة والمهابة ويدخل قلبه الوجيب والقلق من قوارعه وزواجره ووعيده وإنذاره. ونتيجة العذوبة هي تلك الحلاوة واللذة التي يلتمسها القارئ من خلال آياته الكريمة.

ولهذا نجد إنَّ الخطابي قد عمّق مفهوم النظم القرآني بإضافات جديدة ومعاني لطيفة سديدة لم يذكرها غيره من علماء الإعجاز وان دلّت على شيء فانَّها تدلُّ على عمق في الدراسة والتفكير والبحث. مع مِنّة من الله حباها إليه دون غيره.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر: الإعجاز في القرآن: ٤٨، ونظرات في الإعجاز: ٨٥، وإعجاز القرآن: ٥٢.
(٢) بيان إعجاز القرآن: ٦٤-٦٥.